التوجيه الاسلامي

يوم لا ظل إلا ظله

الدكتور سيد بن حسين العفاني

لمثل يوم القيامة وحديثه فلنطل البكاء، هذا اليوم العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه.

قال عمر بن ذر – رحمه الله – أ عليّ تحملون جمود أعينكم وقسوة قلوبكم ؟ احملوا العي عليّ إن لم أسمعكم اليوم واعظا من كتاب الله عزوجل: ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون، ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾. (١)

وقال تعالى: ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراء هم يوما ثقيلا﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فاصبر صبرا جميلا﴾ (٤).

فياله من يوم ما أطوله ! وقال تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾. (٥)

وقال تعالى: ﴿مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾. (٦)

وقال تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ (٧).

(١) سورة المطففين الآيات (٤، ٥، ٦).
(٢) سورة الإنسان الآية (٢٧).
(٣) سورة الإنسان الآية (١٠).
(٤) سورة المعارج الآية (٤، ٥).
(٥) سورة غافر الآية (١٨).
(٦) سورة إبراهيم الآية (٤٣).
(٧) سورة الحج الآية (١، ٢).

وقال تعالى: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا، السماء منفطر به كان وعده مفعولا﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا، وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوات ومن فى الأرض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ولله ملك السماوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون، وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾. (٤)

وقال تعالى: ﴿يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميما، يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التى تؤويه ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه﴾. (٥)

يا له من يوم ما أهوله ..... شاب منه سيد البشر ﷺ.

قال ﷺ: "شيبتني هود وأخواتها". (٦)

وقال ﷺ: "شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت". (٧)

وقال ﷺ: "شيبتنى هود وأخواتها قبل المشيب". (٨)

(١) سورة المزمل الآيتان (١٧،١٨).
(٢) سورة الكهف الآيتان (٤٧،٤٨).
(٣) سورة النمل الآية (٨٧).
(٤) سورة الجاثية الآيتان (٢٧،٢٨).
(٥) سورة المعارج الآيات (٨ – ١٤).
(٦) صحيح: رواه الطبرانى عن عقبة بن عامر وعن أبي جحيفة وصححه الألباني فى "صحيح الجامع" رقم (٣٦١٤) و "الأحاديث الصحيحة" رقم (٩٥٣).
(٧) صحيح: رواه الترمذي والحاكم في "المستدرك" عن ابن عباس، ورواه أيضا الحاكم في "المستدرك"، عن أبي بكر، وابن مردويه، عن سعد وصححه الألباني في " صحيح الجامع " رقم (٣٦١٧).
(٨) صحيح: رواه ابن مردويه، عن أبي بكر، وصححه الألباني في " صحيح الجامع " رقم (٣٦١٥).

وقال ﷺ: "من سره أن ينظر الى القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ: ﴿إذا الشمس كورت﴾، و ﴿وإذا السماء انفطرت﴾، و ﴿وإذا السماء انشقت﴾". (١)

☆ تنمحي فيه علوم الأنبياء وتدهش عقولهم فلا يدرون بما يجيبون: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾. (٢)

☆ قال الفضيل بن عياض: "لو خيرت أن أعيش كلبا وأموت كلبا ولا أرى يوم القيامة لاخترت ذلك". (٣)

وقال: "ما يسرني أن أعرف الأمر حق معرفته، إذا لطاش عقلي". (٤)

☆ وبكى مسعر بن كدام وقال لأمه: "يا أماه لمثل ما نهجم عليه غدا فنطل البكاء، قالت: وما ذاك؟ فانتحب فقال: القيامة وما فيها، ثم غلبه البكاء فقام". (٥)

كيف أنت إذا سمعت أنك إلى العرض على الملك الأعلى، أفلا يطير فؤادك ويشيب رأسك للنداء ؟

توهم نفسك بعُريك ومذلتك، وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك، وهمومك في زحمة الخلائق، عراة حفاة، وهم صموت، أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة.

قال ﷺ: "تحشرون حفاة عراة غرلا". (٦)

وقال تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾. (٧)

(١) صحيح: رواه أحمد في " المسند " والترمذي والحاكم في "المستدرك"، عن ابن عمر، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" رقم (٦١٦٩)، و"الصحيحة" رقم (١٠٨١).

(٢) سورة المائدة الآية (١٠٩).

(٣) "سير أعلام النبلاء".

(٤) "سير أعلام النبلاء".

(٥) " صفة الصفوة " لابن الجوزي (٣ / ١٣٠) دار المعرفة، بيروت.

(٦) رواه البخاري عن عائشة، والترمذي والحاكم في "المستدرك"، عن ابن عباس.

(٧) سورة النبأ الآية (٣٨).

وقال تعالى: ﴿يوم يأت لا تكلم نفس الا بإذنه فمنهم شقي وسعيد﴾. (١)

☆ أقبلت الوحوش من البراري وذرى الجبال، منكسة رؤوسها لذل يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق، ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها، ولا خطيئة أصابتها.

☆ وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها، خاشعة لذل العرض على الله فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء، واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض، قد أذلهم البعث، وجمع بينهم النشور.

☆ وتوهم ملائكة السماوات قد انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب، بعظم أجسامهم وأخطارهم، وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين إلى الأرض بالذلة والمسكنة والعرض عليه والسؤال بين يديه.

☆ فتوههم، وقد تسربلوا بأجنحتهم، ونكّسوا رؤوسهم فى عظم خلقهم بالذلة والمسكنة والخشوع لربهم، كل أهل السماء محدقين بالخلائق صفا واحدا.

فيا طول حزننا وغمنا ويا طول جهدنا وكمدنا، إن كان الله قد قطع ما بينه وبيننا فوالله ما أنصب العباد وأضناهم إلا ذكر المقام، وخوف الحساب وحر يوم القيامة بطوله، وروعة النداء بالعرض على الله.

☆ ولم لا تذوب أبدان العباد والزهاد والخدام فزعا، والقيامة أمامهم، وفى العرصات مقامهم، وعلى الصراط جوازهم، ولهم فى يوم ما قد عملوا ؟ ! فمن لنا في ذلك الموقف، من لتحيرنا وتلددنا، ولجوعنا وعطشنا ؟ ! فواطول وقفتاه ؟ واتحيراه ! وآثقل ظهراه من حمل الذنوب والمظالم والخطايا وأوساخ العيوب، أوه من حملها ! أوه من ذكرها ! أوه من ثقلها ! أوه من إقرارى بها.

☆ قطع ذكر يوم العرض على الله أوصال المحبين.

قال ابن مسعود: "إن هاهنا رجلا ود لو أنها قامت ألا يبعث"، يعني القيامة.

قال الحسن: يحق لمن يعلم أن الموت مورده، وأن الساعة موعده، وأن القيام بين

(١) سورة هود الآية (١٠٥).

يدي الله تعالى مشهده أن يطول حزنه.

وسفيان الثوري: كان إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدم. (١)

وقال الفضيل: ما أغبط ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا يعاين القيامة وأهوالها، ما أغبط إلا من لم يكن شيئا.

وعلي بن الفضيل يموت من آية: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾. (٢)

قال بهز بن حكيم : أمّنا زرارة بن أوفى في مسجد بني قشير، فقرأ المدثر، فلما انتهى إلى هذه الآية: ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ (٣)، فخرّ ميتا. (٤)

" وعبد الله بن وهب قرىء عليه كتاب أهوال القيامة "تأليفه"، فخّر مغشيا عليه، فلم يتكلم بكلمة، حتى مات بعد أيام". (٥)

" وكان عبد العزيز بن سليمان إذا ذكر القيامة صرخ كما تصرخ الثكلىٰ، ويصرخ الخائفون من جوانب المسجد، وربما رفع الميت والميّتان من جوانب مجلسه". (٦)

" وبشر بن منصور – رحمه الله – يقول: إني لأذكر الشيء من أمر الدنيا، ألهي به نفسي عن ذكر الآخرة، أخاف على عقلي ". (٧)

" ويحيىٰ البكاء قرىء عنده: ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ..... ﴾. (٨)

فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة ". (٩)

(١) في "السير" (٧ / ٢٤٢). (٢) سورة الأنعام الآية (٢٧).

(٣) سورة المدثر الآية (٨).

(٤) أحمد في "الزهد"، وابن سعد في "الطبقات"، وابن نعيم في "الحلية"، وابن الجوزي في "صفة الصفوة"، والذهبي في "السير" (٤ / ٥١٦)، وقال: صح.

(٥) "السير" (٩ / ٢٢٦)، و "الانتقام" لابن عبد البر (ص ٤٩).

(٦) "الحلية" (٦ / ٢٤٣)، و "صفة الصفوة" (٣ / ٣٧٧).

(٧) "روضة الزاهدين" (ص ٣٢).

(٨) سورة الانعام الآية(٣٠).

(٩) "الإحياء" (٤ / ١٩٤).

أخي ! إن حضر قلبك فهجير الشمس في الدنيا يذكرك إن كنت لا تستطيعه في دار الدنيا فكيف تصبر على حرها يوم القيامة ..... إذا كان يوم القيامة كسيت الشمس حر عشر سنين، وأدنيت من رؤوس الخلائق فمن بين مستظل بظل العرش وبين مضحوّ بحرّ الشمس، قد صهرته بحرها، واشتد كربه وقلبه من وهجها، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت، فيدفع بعضهم بعضا، وتضايقت، فاختلفت الأقدام، وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق، وتزاحم أجسامهم، ففاض العرق منهم سائلا حتى استنقع على وجه الأرض على الأبدان، على مقدار مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجل بالشقاء.

وأنت لا محالة أحدهم فيالكربك وقد علاك العرق، وأطبق عليك الغم، وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو دار الشقاء ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾.

قال رسول الله ﷺ: " إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قيد ميل أو اثنين، فتصهرهم الشمس، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم فمنهم من يأخذه إلى عقبيه ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه (١) ومنهم من يلجمه (٢) إلجاما "- (٣)

وعن سليم بن عامر، عن المقداد بن الأسود – رضي الله عنه – قال: سمعت النبى ﷺ يقول: " تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل "، قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل: أ مسافة الأرض أو الميل الذى تكحل به العين ؟ قال: "فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمهم العرق إلجاما "، قال وأشار رسول الله

(١) موضع شد الإزار.

(٢) المراد: يبلغ العرق فمه.

(٣) صحيح: رواه أحمد في "مسنده"، والترمذي عن المقداد، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" رقم (٧٨٩).

بيده إلى فيه "ـ (١)

وقال رسول الله ﷺ : "يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا أو يلجمهم حتى يبلغ آذانهم "ـ (٢)

وقال رسول الله ﷺ : " إن العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعا وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم "ـ (٣)

عن عمر – رضي الله عنه – عن النبى ﷺ قال: ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ قال: ' يقوم أحدهم في رشحه إلى نصف أذنيه "ـ (٤)

وعن عبد العزيز العطار، عن أنس بن مالك – لا أعلمه إلا رفعه – قال: " لم يلق ابن آدم شيئا منذ خلقه الله عز وجل أشد عليه من الموت، ثم الموت أهون مما بعده، وإنهم ليلقون من هول ذلك اليوم شدة حتى يلجمهم العرق، حتى إن السفن لو أجريت فيه لجرت "ـ (٥)

أخي ! أحدنا يؤثر الظل على الشمس في دار الدنيا فكيف لا نؤثر ظل عرش الرحمن ..... كيف إذا آواك الودود إلى ظله ..... فوالله لو مات إنسان من شدة الفرح لمت ..... حين ترجو هذا وأنت في دار الدنيا فكيف إذا أتاك اليقين يوم القيامة بأنك ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؟

إذا أتاك اليقين أنك من الذين شملتهم العناية والرعاية، فلا يحزنهم الفزع الأكبر ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ حتى يُقضىٰ بين الخلائق، ولا يعتريهم حزن ولا ينتابهم خوف.

(١) رواه مسلم عن المقداد بن الأسود.

(٢) رواه البخارى عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة .

(٤) أخرجه البخاري والترمذي وقال: حديث صحيح مرفوعا وموقوفا.

(٥) إسناده جيد: قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٠ / ٣٣٤): رواه الطبراني في "الأوسط" وإسناده جيد ورواه أحمد باختصار عنه ولم يشك في رفعه وإسناده جيد.

" إنها أعلى منزلة بعد الوسيلة لرسول الله ﷺ، وشفاعة الأنبياء في أممهم ". (١)

والحمد لله أن هؤلاء الذين يظلهم الله في ظله زادوا على السبعة كثيرا، فاحرص على أن تكون منهم سواء من جهة أو جهتين أو أكثر.

أنت القتيل بكل من أحببته

فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

وثامِن بنفسك النفيسة لاتبعها بالغبن، وقدّم لنفسك ليوم اقتسام الورىٰ الأنوار بالرتب.

أخي ! أحدنا يؤثر الظل على الشمس في دار الدنيا أفلا نؤثر ظل عرش الرحمن والقرب منه على شمس تطحن الناس طحنا، لم نرحم من أنفسنا ما نرحم من غيرنا إذا رأينا رجلا يسير في الهجير قلنا: ألا ترحم نفسك ..... .

فرحمة بنفسك أخي ..... وقربا من الظلال ..... ظلال العرش

يا عرش تحت ظلك الحبيب

يا ليت لي في الظل من نصيب

اللهم اجعلنا منهم، ولا تحرمنا أجر الدلالة على فضلهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

☆☆☆

(١) "في ظلال عرش الرحمن" لعطية محمد سالم (ص ٥٩).